

الاقتصاد الإسلامي في فكر الشيخ يوسف القرضاوي: رؤية قيمية متكاملة بين النص القرآني وفلسفة الاستخلاف

Islamic Economics in the Thought of Sheikh Yusuf al-Qaradawi: A Comprehensive Value-Based Vision Between the Qur'anic Text and the Philosophy of Succession



ط.د. وليد حمزه*

مخبر الدراسات الشرعية والتراثية-كلية العلوم الإسلامية-جامعة أدرار (الجزائر)

Hamza.oualid@univ-adrar.edu.dz

أ.د. ابن عبد الرحمان أحمد

مخبر الدراسات الشرعية والتراثية-كلية العلوم الإسلامية-جامعة أدرار (الجزائر)

ibanabderrahman@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الاستلام: 2025/08/26 تاريخ القبول: 2025/11/22 تاريخ النشر: 2025/12/16



ملخص: يهدف هذا المقال إلى إبراز خصائص الاقتصاد الإسلامي من خلال منظور الشيخ يوسف القرضاوي، الذي يعدّ من أبرز العلماء المعاصرين الذين أسهموا في تطوير الفكر الاقتصادي الإسلامي. ينطلق القرضاوي من مركزية النص القرآني وفلسفة الاستخلاف باعتبارهما الإطار المرجعي لكل نشاط اقتصادي، ثم يحدد جملة من الخصائص القيمية الكبرى التي تمنح الاقتصاد الإسلامي تميّزه عن غيره، وهي: الربانية، الأخلاقية، الإنسانية، والروحية. ومن خلال هذا الطرح، يسعى المقال إلى بيان كيف يوفق القرضاوي بين البعد المادي والبعد القيمي، بحيث يصبح الاقتصاد الإسلامي نظاماً يوازن بين حاجات الفرد ومتطلبات المجتمع في ضوء مقاصد الشريعة.

* المؤلف المراسل

الكلمات المفتاحية: الاقتصاد الإسلامي، القرضاوي، الخصائص، الاستخلاف، القيم.

Abstract: This article aims to highlight the main characteristics of the Islamic economy from the perspective of Sheikh Yusuf al-Qaradawi, one of the most influential contemporary scholars in the field. Al-Qaradawi bases his economic thought on the centrality of the Qur'an and the concept of stewardship (istikhlaf) as the guiding framework for all economic activity. He then outlines a set of fundamental value-based characteristics that distinguish the Islamic economy, namely: divinity, morality, humanity, and spirituality. By doing so, this article demonstrates how al-Qaradawi strikes a balance between material and ethical dimensions, making the Islamic economy a system that harmonizes individual needs with collective interests in light of the higher objectives of Sharia.

key words: Islamic economy, al-Qaradawi, characteristics, stewardship, values.

مقدمة:

يُعَدُّ الاقتصاد واحدًا من أهم مجالات الحياة التي يتوقف عليها توازن المجتمعات واستقرارها، ولأجله وُضعت أنظمة ونظريات متعددة عبر التاريخ، غير أنّ هذه النظم الوضعية لم تستطع أن تُحقق العدل المطلوب أو أن ترفع المظالم عن الفئات الضعيفة، بل ساهمت في تعميق التفاوت بين الأغنياء والفقراء. وهنا يبرز الاقتصاد الإسلامي كبديل يقوم على قيمٍ راسخة تستمد جذورها من الوحي، ويهدف إلى التوفيق بين حاجات الفرد ومصالح المجتمع، في ضوء التصور القرآني لمكانة الإنسان ودوره في الأرض.

وفي هذا السياق، كان للشيخ يوسف القرضاوي— دورٌ مميّز في إبراز معالم الاقتصاد الإسلامي، حيث قدّم اجتهادات عميقة تربط النصوص الشرعية بالواقع، وتسلّط الضوء على الخصائص التي تمنح هذا الاقتصاد تميّزه بين بقية النظم. لقد جمع— بين الفقيه المتخصص والباحث المتابع للتطورات المعاصرة، فكتب عن المال والاستخلاف، وعن الزكاة ودورها، وعن القيم التي تضبط النشاط الاقتصادي في الإسلام.

ومن هنا تبرز أهمية هذا المقال، إذ يسعى إلى إبراز خصائص الاقتصاد الإسلامي كما صاغها الشيخ القرضاوي-، والتعريف بمرتكزاتها الأساسية التي تنبني على النص القرآني وفلسفة الاستخلاف.

ويهدف البحث إلى:

- إبراز مركزية النص القرآني في فكر الشيخ القرضاوي- الاقتصادي.
 - توضيح فلسفة المال والاستخلاف.
 - تحليل الخصائص القيمة الكبرى للاقتصاد الإسلامي.
 - إظهار تمايز المشروع الاقتصادي الإسلامي عن النظم الوضعية.
- وقد اعتمدنا في الدراسة على المنهج التحليلي-الوصفي، من خلال تحليل نصوص القرضاوي- وكتاباتاته، واستقراء الأسس القرآنية والقيمة التي شكّلت رؤيته الاقتصادية. ولقد جاء المقال على شكل مبحثين تسبقهما مقدمة وتليهما خاتمة، حيث:
- المبحث الأول: مركزية النص القرآني وفلسفة المال والاستخلاف.
- المبحث الثاني: الخصائص القيمة الكبرى للاقتصاد الإسلامي في فكر القرضاوي-.

المبحث الأول: مركزية النص القرآني وفلسفة المال والاستخلاف

قبل الحديث عن الخصائص القيمة الكبرى التي تمنح الاقتصاد الإسلامي تميزه، من الضروري الوقوف عند الأرضية التأسيسية التي ينطلق منها الشيخ القرضاوي- في صياغة رؤيته الاقتصادية، ذلك أنّ الخصائص لا تأتي من فراغ، وإنما تنبني على مرجعيات قرآنية وفكرية واضحة. وقد وجد الشيخ القرضاوي- في النص القرآني المصدر الأول الذي يوجه النشاط الاقتصادي ويضبط مساراته، كما جعل من فلسفة الاستخلاف المفتاح لفهم علاقة الإنسان بالمال ومكانته في المجتمع.

وقد شدّد- على أنّ النصّ القرآني لا يُعطي أحكاماً اقتصاديةً جزئيةً فحسب، مثل تحريم الربا أو فرض الزكاة، بل يقدّم منظومةً متكاملةً تقوم على مقاصدٍ عليا؛ أهمها تحقيق

العدل، وصيانة الكرامة الإنسانية، ومكافحة التفاوت الطبقي. وهذا التصور الكلي يجعل الاقتصاد الإسلامي مرتبطاً بالرسالة العامة للشريعة في بناء مجتمع متوازن. إن إدراك هذه المرتكزات يساعد على فهم الطريقة التي بنى بها القرضاوي — منظوره الخاص، وكيف نظر إلى المال باعتباره أمانةً وابتلاءً، وإلى الاقتصاد باعتباره جزءاً من رسالة الإنسان في الأرض. لذلك؛ يشكل هذا المبحث مدخلاً تأسيسياً يمهد للانتقال إلى بيان الخصائص القيّمة الكبرى التي ستُفصّل في المبحث الذي بعده. والمتتبع لما كتبه الشيخ يوسف القرضاوي — حول الاقتصاد الإسلامي يلمح عدة ملامح:

أولاً: جعل من النص القرآني المحور الرئيسي في كل مسألة تعرض لها، حتى إنك تحسب أن القرآن الكريم كتاب الحلول الاقتصادية، لكثرة استشهاده بالقرآن الكريم. ويظهر ذلك من خلال استشهاده المتكرر بالآيات عند مناقشة قضايا الاقتصاد، مثل اعتباره الميراث وسيلة شرعية لتوزيع الثروة وعدم احتكارها، أو حديثه عن الإنفاق في سبيل الله باعتباره آلية لحركة المال وتطهير المجتمع من الشح والبخل¹. ثانياً: توجيهه الآيات القرآنية وفق المصطلحات الاقتصادية المعاصرة، مع التزامه باللفظ القرآني ما استطاع إلى ذلك سبيلاً لتصنيفه الموارد ضمن تفتيت الثروات² وغيرها.

وقد ساعده في ذلك تمكنه من اللغة الاقتصادية المعاصرة؛ إذ لم يكتفِ بالتفسير الفقهي التقليدي، بل أعاد صياغة المفاهيم القرآنية في قالب جديد يتماشى مع مصطلحات التنمية والاستثمار والإنتاج، مما جعل خطابه قريباً من الباحثين والمهتمين بالقضايا الاقتصادية الحديثة.

ثالثاً: شارك الشيخ القرضاوي التأصيل لموضوع الاقتصاد الإسلامي، والبنوك الإسلامية منذ باكورة انطلاقتها المعاصرة. ولعل كتابه (فقه الزكاة في الإسلام) والذي

حصل به على الدكتوراه بدرجة الشرف العالي، مع إشارات إسلامية وعالمية بهذا الكتاب، واحدة من أهم إنجازاته في هذا المجال³.

ويُعتبر كتابه (فقه الزكاة) محطة مفصلية، إذ لم يقتصر تأثيره على المجال الأكاديمي، بل أصبح مرجعاً عملياً استندت إليه المصارف الإسلامية في بلورة سياساتها المالية، كما شكّل أساساً لكثير من البحوث والدراسات حول دور الزكاة في محاربة الفقر وتحقيق التنمية.

وسنحاول في هذا المبحث أن نبرز رأي الشيخ القرضاوي في السياسة المالية، إذ أن عالم اليوم والفترة التي عاشها الشيخ وتنازعه بين قطبين اقتصاديين، القطب الرأسمالي الغربي والقطب الشيوعي الشرقي، وبين القطبين توزعت ألوانٌ أخرى أكثر من ألوان الموشور الضوئي، وأحزاباً ورؤى ونزعات اقتبست من هاتين المدرستين أصولاً وغيّرت فيها بما يلائم بلادها وأهواءها. والشيوعيون والاشتراكيون يحاولون حل مشكلة الفقر - والمشكلة الاقتصادية عامة - بخنق حريه الشعب وفرض دكتاتورية عابثة مستبدّة تتحكم في أرزاقه، ولا تدع فرصة لحرية العمل أو التملك، عبودية عامة على الشعب كله، عبودية يصبح المواطنون معها رقيقاً يملكهم سيد واحد؛ وهو الجهاز الحزبي الحاكم، ولا عجب إذا وجدنا القرآن يقول ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ [النحل: 75] وإنما وصف القرآن العبد المملوك لأنه لا يقدر على شيء. لأنه لا يملك شيء، فإن الملكية تعطي صاحبها نوعاً من القدرة على الحركة والتصرف، أما السيد الحر في نظر القرآن ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ [النحل: 75] أي هو يملك ويتصرف في ملكه وفق ما يوحى إليه ضميره⁴.

ومن هذا النص القرآني كانت التفاتة لطيفة للدكتور القرضاوي في نقده للمدرسة الشيوعية، وما تفرع عنها، إذ أنه يرى أن هذه التجربة لم تفشل فقط بسبب بعدها عن الدين، بل لأنها تجاهلت الطبيعة الفطرية للإنسان التي تميل إلى الحرية في التملك والعمل،

فحوّلت الأفراد إلى مجرد أدوات بيد الدولة، وهو ما يتعارض مع مبدأ الاستخلاف الذي يقرّ المسؤولية الفردية في إطار الجماعة.

وفي المقابل يذكر الإسلام النظرة الرأسمالية المادية القائمة على الحرية المطلقة في استعمال المال واستثماره، فالإسلام ينكر أيضاً اعتبار الغني هو المالك الحقيقي لماله وثروته، وهو صاحب الحق الأول والأخير بالتصرف فيها. إنها نظرة قارون الذي نسب المال كله إلى نفسه، وجحد نعمة ربه، ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص: 81]⁵.

كما انتقد القرضاوي النظرة الرأسمالية التي جعلت من المال غاية في ذاته، معتبراً أن الإسلام يضع المال في موضع الوسيلة لا الغاية؛ وسيلة للتركية والإنفاق والإعمار، لا أداة للترف والاستغلال. وهو بهذا يرفض كل منطق يجعل الغنى معيار التفاضل بين الناس، ويؤكد أن القيمة الحقيقية للإنسان هي في تقواه وعمله الصالح.

وهكذا يتضح أن النص القرآني وفلسفة الاستخلاف يمثلان البنية التحتية للفكر الاقتصادي عند القرضاوي، ومنهما انطلقت الخصائص القيمة الكبرى التي سيجري تناولها في المبحث الثاني بتفصيل أعمق⁶.

المبحث الثاني: الخصائص القيمة الكبرى للاقتصاد الإسلامي في فكر القرضاوي الخاصية الأولى: الربانية

فهو اقتصاد رباني، لأن منطلقاته من الله وغايته إلى الله، ووسائله لا تحيد عن شرع الله. فالإنسان المسلم يُنتج استجابةً لأمر الله ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: 15] وهو حين يستهلك ويأكل من الطيبات يستجيب لأمر الله ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: 168] كل ذلك في توسط واعتدال، فالمولى ﷻ يقول: ﴿يَنْبِيْ عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» [الأعراف: 31-32]⁷.

وإن الاقتصاد في الإسلام فرعٌ عن العقيدة وخادمٌ لها، وهذه الربانية تجعل في المسلم وازعا داخليا ينشئه الإيمان في قلب المسلم، ويجعل من نفسه رقيبا على نفسه، وتمنعه أن يُدخل السحتَ إلى جيبه، ولو حكمت ألف محكمة ومحكمة، فضمير المؤمن هنا قاضيه، قال تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لَتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 188]، ففرقٌ بين إنسانٍ ينظر إلى المال ويقول في غرور: هذا لي، وبين آخرٍ يقول في تواضع وإيثار: هذا لله عندي. فرقٌ بين قارون الذي قال معترًا بماله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: 78] وبين سليمان الله الذي قال شاكرا لأنعم ربه: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: 40]⁸.

وكون الاقتصاد في الإسلام فرع عن العقيدة مسألة لها مدلولاتها العميقة، نجد الشيخ القرضاوي يجعلها في مواجهة المبادئ اللادينية في قوله: "إن أساس المجتمع الصالح الإنسان الصالح. ولا يصلح الإنسان إلا العقيدة، وإذا صلح الفرد صلحت الجماعة. وإنما يصلح الفرد بصلاح نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11] فمنطق (ماركس) إن هو غير الاقتصاد وعلاقات الإنتاج يتغير التاريخ، ومنطقنا نحن المسلمين منطق القرآن، وهو المنطق الواقعي: غيّر نفسك يتغير التاريخ، غيروا ما بأنفسكم يغير الله ما بكم، وإن ما يتغير بالأنفس العقيدة"⁹.

الخاصية الثانية: اقتصاد أخلاقي :

الاقتصاد في الإسلام مع أنه يشجع السوق الحر، ويمنع هيمنة الدولة على أموال المواطنين، فإنه لا يميز تقديم الأغراض الاقتصادية على رعاية المثل والفضائل التي يدعو إليها الدين، ومن ذلك على سبيل المثال منع حجج المشركين إلى الكعبة بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ

خَفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» [التوبة: 28]
ولا شك إن منع الألوף وعشرات الألوף من الحج إلى الكعبة خسارة اقتصادية كبيرة على المسلمين. ومن مثل هذا يتبين لنا أنه لا يحل للمسلمين في سبيل تنشيط السياحة وكسب العملات الصعبة أن يبيحوا الخمر ويحلّوا الحرام، ويقيموا دور الرقص والفجور، وإن خافوا عَيْلَةً فسوف يغنيهم الله من فضله¹⁰.

ومن ذلك تحريم الخمر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ﴾ [المائدة: 90-91] ولم يكتف الإسلام بتحريم تناولها، بل حرم كل ما يعين على تناولها: عاصرها وحاملها وبائعها وشاربها وأكل ثمنها¹¹.

فالقرضاوي — يؤكد أن الأخلاق ليست مجرد زينة اجتماعية أو سلوك فردي، بل هي جوهر الدين وروحه، تتغلغل في كل تفاصيل الحياة: في العبادة، والمعاملات، والسياسة، والاقتصاد. فالإنسان قد يؤدي عباداته ويحتنب المحرمات، لكن إن لم تنعكس تلك الطاعة في معاملاته، وصدقه، وأمانته، وعدله، فلا قيمة حقيقية لذلك العمل. ولهذا يشدد — على أن أي نشاط اقتصادي لا يستظل بالأخلاق، ولا يحكمه ميزان القيم، هو نشاط فاقد للمعنى الشرعي والإنساني، مهما حقق من ربح أو توسع. ومن هنا، يصبح البعد الأخلاقي في الاقتصاد الإسلامي هو الذي يحفظ للنشاط الاقتصادي وجهته، ويربطه برسالة الإنسان في الاستخلاف والإعمار، بعيداً عن جشع المادية أو استبداد النظم الوضعية.

الخاصية الثالثة: الإنسانية.

والإنسانية التي هي من خصائص الاقتصاد الإسلامي — كما يعرفها الشيخ القرضاوي — هي تحقيق الحياة الطيبة بكل مقوماتها للإنسان، في كل مراحل حياته من الطفولة إلى الشيخوخة وفي كل ظروف حياته من صحة وسقم، ومن ضعف وقوة¹².

الإنسان هو صانع هذا الاقتصاد بإذن الله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] وقال سبحانه ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكَ فِيهَا﴾ [هود: 61] فالإنسان هو غايه الاقتصاد الإسلامي وهو وسيلته.

وتتمثل إنسانية الاقتصاد الإسلامي في مجموعة من القيم التي هدى إليها القرآن الكريم وحفل بها تراث الإسلام، ومن أبرز ما تتجلى فيه المعاني الإنسانية في الاقتصاد الإسلامي عَمَلُهُ على توفير الحياة الطيبة للإنسان، فقد جعلها الله مثوبة لأهل الاستقامة ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: 16] ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96]¹³.

ويبرز الشيخ القرضاوي- في خاصية إنسانية الاقتصاد الإسلامي كذلك مبدأ (تمام الكفاية)، إذ لا يكتفي النظام الإسلامي بضمان حد الكفاف للفرد، بل يسعى إلى أن يوفر له مستوى لائقاً للمعيشة، شاملاً الجوانب المادية والنفسية، عبر تنمية القدرات، والتدريب، وتوفير العمل، بل حتى مساعدة غير القادرين من غير المسلمين¹⁴.

ويؤكد القرضاوي- أن إنسانية الاقتصاد الإسلامي لا تقف عند حدود المسلم فقط، بل تشمل كل إنسان يعيش في المجتمع الإسلامي، مسلماً كان أو غير مسلم، إذ له الحق في الضمان الاجتماعي والعيش الكريم، مستشهداً بوصية الخليفة عمر بن الخطاب بغير المسلمين، مما يعكس طابع الرحمة والشمولية في الاقتصاد الإسلامي.

هذا التأصيل يعزز بعد الإنسانية في الاقتصاد الإسلامي، حيث لا يكفي أن يعيش الإنسان، بل يجب أن يعيش بكرامة وشمولية إنسانية.

الخاصية الرابعة: البعد الروحي في الاقتصاد الإسلامي:

من هذا الطيف الواسع والتيارات المادية الكبيرة التي أسست على إغراء المجتمع بالإصلاح الاقتصادي والرفاهية، نجد ثغرة كبيرة ألا وهي. (إغفال الجانب الروحي) إلا من نزر يسير بما نستطيع تسميته تسييس الدين، أما القالب الأصلي لهذه الانظمة

الاقتصادية فهي المادية البحتة. وبهذا يتضح لنا أن نظام الإسلام يخالف الرأسمالية التي تسرف في تدليل الفرد وإعطائه من الحقوق حتى تضخم وطغى. ويخالف الشيوعية التي تسرف في تحطيم الفرد وإثقاله بالواجبات. حتى ضمّر وانكمش. إن الأولى تحابي الفرد على حساب المجتمع والثانية تحابي المجتمع على حساب الفرد وكل من النظامين يسرف في إعطاء الدنيا على حساب الآخرة، وإعطاء الجسم على حساب الروح والإسلام وحده هو الذي يرقى من غلو الفريقين. إنه النظام الذي وازن بين الجسد والروح. وبين الدنيا والآخرة ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: 9-15].

بل إن هذه القيم الروحية هي الرصيد الكفيل والعمود الفقري لمنظومة النظم الاقتصادية الإسلامية والراعية لها. رغم أنها ليست قانوناً، ولا يترتب عليها أحكاماً، لكنها روح تسري في ضمائر السوق الإسلامي ومؤسساته المالية. يقول الشيخ القرضاوي: "إن القيم الروحية الرفيعة من الإيمان والعمل الصالح هي الثروة التي لا تنفد، والكنوز التي لا تنفد، والباقيات الصالحات على مر الأعوام والأعصار، ولهذا يوجه القرآن الكريم هم المؤمنين إليها ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46] وقوله سبحانه ﴿وَمَا أَوْتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّاعٌ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: 60]"¹⁶.

وفي نماذج مقتضبة سنشاهد كيف أبرز الشيخ القرضاوي هذا الجانب في الاقتصاد الإسلامي.

أولاً: في موضوع الزكاة:

لقد عبر القرآن الكريم عن هدف الزكاة بالنظر إلى الأغنياء الذين تؤخذ منهم فأجل ذلك في كلمتين من عدة أحرف. ولكنهما تتضمنان الكثير من أسرار الزكاة وأهدافها الكبيرة (التطهير والتزكية) قال تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ

عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» [التوبة: 103] وهما يشملان كل تطهير وتركية، لروح الغني ونفسه وماله وثروته¹⁷.

ثانياً: ذكر الله تعالى:

ومن القيم التي لا يجوز إغفالها، إن التجارة والبيع وعقد الصفقات وكسب الملايين لا تجيز للمسلم أن يغفل عن ذكر ربه أو ينشغل عن إقامة شعائره وأداء فرائضه، وبخاصة الصلاة، ولهذا وصف الله رواده بيته بقوله ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: 36-38]، وقال في صلاة الجمعة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ هُوَا أَنْفُسُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجْرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: 9-11] فهذا هو المسلم يقبل لدنياه، ويسعى لآخرته، يبيع ويشترى ويتناول الأعيان، ولو كان في يوم الجمعة، إذ لم يحرم الإسلام العمل يوم الجمعة، كما حرّمته يهود في السبت، ولكن إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة، نفّس يده من دنياه وتجارته ونهض تلبيه للنداء¹⁸.

ثالثاً: قسوة القلب:

استدل الشيخ القرضاوي - بقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) "من احتكر طعاماً أربعين يوماً قسى قلبه"¹⁹ على علة قسوة القلب في الاحتكار باعتباره من التجارة المحرمة. وسرّ ذلك أنه ينظر إلى مصلحة نفسه ولا يبالي بضرر المجتمع، فكلّما حدث رخص آله، وكلما سمع بغلاء سرّه وأهجمه، فلا عجب أن تغزوه الأنانية.

والقسوة آفة تنزل بالإنسان من أفق الإنسانية إلى الحضيض، ولقد ذم القرآن بني إسرائيل بقوله ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 74] واعتبرها القرآن عقوبة إلهية. يبتلى بها من عصى الله وانحرف عن منهجه. كما قال تعالى ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: 13]²⁰.

من خلال ما سبق يتبين أن البعد الروحي عند القرضاوي ليس مجرد وعظ أخلاقي، بل هو عنصر أصيل في بناء النظام الاقتصادي، إذ يجعل من القيم الإيمانية حصانة ضد الانحراف المادي، ويضمن أن تظل حركة المال مرتبطة بمقاصد الشريعة في التزكية والإعمار.

خاتمة

لقد حاول هذا البحث تقديم قراءة منهجية متأنية للفكر الاقتصادي عند الشيخ يوسف القرضاوي، بالعودة إلى أصوله القرآنية، وتحليل ركائزه المفهومية، واستجلاء ملامحه القيمية الكبرى التي تكوّنت عبر مشروع علمي امتدّ لعقود. وقد أبرزت الدراسة أن البناء الاقتصادي في فكر القرضاوي ليس بناءً تجزيئياً أو ظرفياً، وإنما هو رؤية متكاملة تستند إلى فلسفة الاستخلاف، وتستمد قوتها من النص القرآني، وتجد امتدادها في معالجة القضايا الاقتصادية الكبرى التي عرفها العصر الحديث.

كما تبين أن هذا الفكر لم ينشأ في فراغ، بل جاء في سياق جدل عالمي بين أنظمة مادية متنافسة؛ الرأسمالية والشيوعية، وما تفرّج عنهما من نماذج هجينة. وقد حاول القرضاوي، عبر كتاباته، أن يُخضع هذه النظم للفحص القرآني، وأن يستثمر القيم الإسلامية في بناء بديل معرفي وأخلاقي قادر على تحقيق التوازن بين الإنسان والمال، وبين الفرد والمجتمع، وبين الدنيا والآخرة.

وانطلاقاً من هذه الرؤية، خلص البحث إلى مجموعة من النتائج التي يمكن إجمالها على النحو الآتي:

1. تبين من خلال المقال أن الشيخ يوسف القرضاوي يجعل النص القرآني محوراً أساسياً للفكر الاقتصادي الإسلامي، إذ يقوم كلّ بنائه النظري على الآيات التي تنظم المال، وتوجّه السلوك الاقتصادي، وتحدّد مقاصد العدل والتوازن الاجتماعي.
2. أثبت المقال أن فلسفة الاستخلاف تشكّل المفتاح لفهم علاقة الإنسان بالمال عند القرضاوي، حيث يُنظر إلى المال باعتباره أمانة واختباراً، وإلى الإنسان باعتباره مسؤولاً عن تعمير الأرض وفق ميزان القيم، لا وفق نزعة التملك المطلقة.
3. أبرز المقال أن القرضاوي يرفض النظم الاقتصادية المادية (الرأسمالية والشيوعية)، مستنداً إلى نصوص قرآنية تُظهر خلل النظرتين:
 - الشيوعية التي تنفي الملكية الفردية وتخالف الفطرة.
 - والرأسمالية التي تجعل المال غاية وتؤدي للطغيان.وهذا الاستنتاج جاء مباشرة من تحليلك لآيات سورة النحل والقصص.
4. بيّن المقال أن الخصائص الأربعة التي صاغها القرضاوي للاقتصاد الإسلامي (الربانية، الأخلاقية، الإنسانية، الروحية) تمثل منظومة قيمية متكاملة تنعكس على كل معاملات المسلم وممارساته. وقد تمت دراسة كل خاصية بدليل قرآني وتفسير وظيفي.
5. توصلت الدراسة إلى أن الربانية تُنشئ رقابة داخلية في قلب المسلم، وهي أقوى من الرقابة القضائية، لأنها تربط كسب المال بمرضاة الله، وتمنع أكل السحت ولو أقرت به القوانين الوضعية.
6. أظهر المقال أن الأخلاق ليست عنصراً ثانوياً في الاقتصاد الإسلامي بل هي جزء من بنائه التشريعي، وقد فُسّر ذلك بأمثلة قرآنية مثل منع حجّ المشركين رغم الخسارة الاقتصادية، وتحريم الخمر وكل ما يعين على تناولها.

7. بين المقال أن "الإنسانية" عند القرضاوي تعني توفير الحياة الطيبة بكل مقوماتها للإنسان، مؤمناً كان أو غير مؤمن، وفق مبدأ تمام الكفاية الذي يجعل الاقتصاد الإسلامي موجّهاً لخدمة الإنسان أولاً.

8. أظهر المقال أن الفقه الاقتصادي عند القرضاوي يوازن بين الفرد والمجتمع؛ فحرية التملك قائمة، لكنّها مقيدة بالمسؤولية، وبمنع الاحتكار، وبضمان الحقوق الاقتصادية للضعفاء.

9. خلاص المقال إلى أن البعد الروحي عنصر أصيل في الاقتصاد الإسلامي عند القرضاوي، وأنه ليس مجرد وعظ، بل "روح تسري" في المنظومة الاقتصادية، تضبط المال، وتمنع الجشع، وترتبط التجارة بذكر الله وإقامة الصلاة والزكاة.

10. أكّدت الدراسة من خلال نماذج تطبيقية (الزكاة - الذكر - الاحتكار) أن القيم الروحية تُترجم إلى آثار اقتصادية مباشرة، مثل تطهير المال، وتنظيم حركة الأسواق، وحماية المجتمع من الاستغلال.

11. أظهر المقال أن رؤية القرضاوي الاقتصادية ليست نظرية مجردة، بل مشروع عملي يمكن قراءته من خلال كتبه وتجربته في التأصيل للبنوك الإسلامية، وبخاصة كتاب فقه الزكاة الذي شكّل أساساً لكثير من التطبيقات الاقتصادية الإسلامية.

12. نهت الدراسة إلى أن فهم الخصائص القيمية لا يكتمل إلا بالرجوع إلى مركزية القرآن وفلسفة الاستخلاف، مما يجعل البناء الاقتصادي عند القرضاوي بناءً مترابطاً يشرح بعضه بعضاً، وهو ما حاول المقال إبراز تسلسله ومنطقه الداخلي.

وبذلك يتضح أنّ فكر الشيخ يوسف القرضاوي في الاقتصاد الإسلامي يُمثّل لبنة أساسية في مشروع الإصلاح الاقتصادي المعاصر، وأنه يقدم نموذجاً متماسكاً يُمكن من إعادة قراءة القضايا المالية والتنموية في ضوء قيم القرآن، وفي إطار رؤية حضارية تُعيد الاعتبار للإنسان، وتوازن بين حاجاته المادية والروحية، وتضع المال في مكانه الطبيعي: وسيلة للتركية والإعمار لا غاية في ذاته.

الهوامش

- 1 يظهر ذلك من خلال كتاباته، ومحاضراته، وخطبه ودروسه.
- 2 يوسف القرضاوي: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، ص2.
- 3 انظر: علي محي الدين القرة داغي: آثار مؤلفات الشيخ القرضاوي في الاقتصاد الإسلامي، مقال منشور على موقع الكاتب، اطلعت عليه يوم 2025/08/24 على الرابط التالي: <https://2u.pw/fHu3q>
- 4 يوسف القرضاوي: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، ص92.
- 5 انظر: يوسف القرضاوي: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، ص27.
- 6 انظر: المصدر نفسه، ص27.
- 7 انظر: يوسف القرضاوي: دور القيم في الاقتصاد الإسلامي، ص29.
- 8 انظر: المصدر نفسه، ص39-40.
- 9 يوسف القرضاوي، لماذا الإسلام، ص42.
- 10 انظر: يوسف القرضاوي: دور القيم في الاقتصاد الإسلامي، ص60.
- 11 انظر: المصدر نفسه، ص58.
- 12 انظر: يوسف القرضاوي: دور القيم في الاقتصاد الإسلامي، ص60.
- 13 انظر: المصدر نفسه، ص66.
- 14 يوسف القرضاوي: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، ص86.
- 15 انظر: يوسف القرضاوي: ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، ص241.
- 16 يوسف القرضاوي: دور القيم في الاقتصاد الإسلامي، ص106.
- 17 انظر: يوسف القرضاوي: فقه الزكاة-دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة، ص869.
- 18 انظر: يوسف القرضاوي: دور القيم في الاقتصاد الإسلامي، ص304.
- 19 لم أجد هذا القول لسيدنا علي عليه السلام فيما بيّن يدي من مصادر، لكنني وجدته حديثاً للنبي ﷺ رواه الإمام أحمد في مسنده. وقال عنه شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف لجهالة أبي بشر. ج8، ص481.
- 20 يوسف القرضاوي: الرحمة وتحريم الاحتكار، مقال منشور على موقع سماحة الشيخ يوسف القرضاوي يوم 2016/08/16، اطلعت عليه يوم 2025/08/23 على الرابط التالي: <https://www.al-qaradawi.net/node/2188>

المصادر والمراجع

1. أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني: مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1121هـ/ 2001م.
2. علي محي الدين القرة داغي: آثار مؤلفات الشيخ القرضاوي في الاقتصاد الإسلامي، موقع الكاتب، على الرابط التالي: <https://2u.pw/fHu3q>

3. يوسف القرضاوي: الرحمة وتحريم الاحتكار، مقال منشور على موقع سماحة الشيخ يوسف القرضاوي يوم 2016/08/16، اطلعت عليه يوم 2025/08/23 على الرابط التالي: <https://www.al-qaradawi.net/node/2188>
4. يوسف القرضاوي: دور القيم في الاقتصاد الإسلامي، مكتبة وهبة، القاهرة-مصر، ط3، 2002م.
5. يوسف القرضاوي: فقه الزكاة-دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة، مكتبة وهبة، القاهرة-مصر، ط25.
6. يوسف القرضاوي: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1985م.
7. يوسف القرضاوي: ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، مكتبة وهبة، القاهرة-مصر، 2012م، ط5.
8. يوسف القرضاوي، لماذا الإسلام، مكتبة وهبة، القاهرة-مصر، ط1.